جامعة باجي مختار – عنابة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

ليسانس السنة الثانية شعبة الدراسات الأدبية

مادة الحداثة في الأدب العربي / أ. الطاهر رواينية

مظاهر الحداثة الشعرية : اللغة الشعرية

تسهم اللغة في التأسيس للتواصل وما يتجاوز التواصل من أبعاد ثقافية ورمزية ، ومن هذه الناحية تعد كل الأنظمة الرمزية الأخرى عناصر مساعدة او مشتقة من اللغة ، وهي من هذا المنظور تند عن التصنيف ضمن أية مقولة من الوقائع الإنسانية ، نظرا لتنوع استعمالاتها ، وهو ما وسمه الفيلسوف فتجنستين بـ " لعب اللغة " [1] ، هذه اللعب تحقق فعلها بدرجة أعلى على مستوى الوظيفة الشعرية للخطاب ، حيث يكون للوظيفة الإيحائية la connotation دور رئيسي في ازدواج المعاني أو تعددها ، وفي امتدادها وتوسعها داخل الخطاب الشعري ، وفي التفريق بين رتب النصوص في سلم القيم الفنية والجمالية ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الحداثة ، وهي تمعن النظر في علاقة الشعر باللغة أن تتخذ العديد من المواقف التي تتعلق باللغة الشعرية ، وهي تسعى للانعتاق من أساليب التعبير المسكوكة ، وتجاوز أنساق التعبير المتجهة نحو الماضي ، وهدم كل ما هو جاهز من الصيغ والتعابير المتداولة والمتوارثة عن الأقدمين " فالشعر فعل في اللغة لا يرضى بما يتيحه التعود على استعمالها ، وهو ينزع إلى الملموس ويعتمد المجاز ، ويتأسس على الصور [...]ويحاول جاهدا أن يجعل العلامة على صلة بما تشير إليه . بل إن الاستعارة في أدق خصائصها ن غنما تعبر عن علاقة بين الاسم والمسمى لا تقدر اللغة العادية على تأديتها " [2] .

وقد شكل هذا التوجه منطلقا لدى الشاعر الفرنسي مالارميه في زمانه للتفريق بين الكلام العادي والكلام الشعري ، أي بين التعيين والإيحاء ، فكل منهما ينهض بالوظيفة المناطة به ، فالسرد والإخبار والوصف والتعليم والحوار ينهض به التعيين ، أما الحلم والتأمل والاستشراف فينهض به الإيحاء وما يستلزمه من المعاني المصاحبة ، وقد نظر كل من بودلير وبول فاليري في هذا الرأي ، فأحلا التقابل والتضاد في العلاقة بين مستويي الكلام ن فكانت دعوتهما صريحة إلى ضرورة نبذ الكلام الأول والظفر بالثاني [3] . وكان جبران خليل جبران أبا هذا التوجه في الحداثة الشعرية العربية ، تتميز نظرة جبران للغة بأنها نظرة مستقبلية حرة ومجردة ، مرتبطة بالذات الشاعرة وبظروفها الملتبسة ، وعبرة عما يعتريها من مشاعر واحوال ؛ يقول : " لكم لغتكم ولي لغتي ، لكم من اللغة العربية

ما شئتم ن ولي منها ما يوفق افكاري وعواطفي ؛لكم منها اللفاظ وترتيبها ، ولي منها ما تومئ إليه الألفاظ ولا تلمسه ، ويصبو إليه الترتيب ولا يبلغه ؛ [...] أقول لكم إن النظم والنثر عاطفة ، وفكر ، وما زاد على ذلك فخيوط واهية وأسلاك منقطعة " [4] ، وهو يبدو من خلال اعتراضاته عل مير اللغة العربية أشبه بالمسيح وهو يلقي تعاليمه ووصاياه ، متبرما ساخرا " لكم لغتكم ولي لغتي " [5] ، وهو إذ يفرط في نسبة اللغة للذات ، فإنه يبرر ذلك ، حيث يرى انه وهو طفل كان حساسا جدا فيما يتعلق باللفاظ ، يريد أن يقول الأشياء بطريقته الخاصة ، الطرق القديمة لم تكن تعبر عن أشيائه الجديدة ، ، وكان يعمل دائما على ما يعبر عنها ، ولم يقتصر على صياغة ألفاظ جديدة ، بل إن إيقاعاته وموسيقاه كانت جديدة ، كن عليه – كما يقول – أن يجد اشكالا جديدة لآراء جديدة [6] .

ينطلق جبران في موقفه من اللغة من منظور يتماهي فيه مع الرؤية الرومانسية التي تجمع وتوحد بين الذات المبدعة وموضوعها أثنا التجربة الفنية ، حيث " تتحول الذات إلى طاقة أو قوة للصهر والتذويب . وتشكل اللغة [بالنسبة لهذه الذات] كونا مفتوحا على الممكن واللانهائي ، مادة أو كتلة قابلة للنحت والتمثيل ومعاودة الاكتشاف " [7] ، ومن هذا المنظور أيضا يعد هايدغر اللغة مسكنا للذات . وفي هذا السياق يقول عنه أدونيس : " فجبران منذ البداية مأخوذ بهاجس التجديد والتفرد ، هاجس أن يبدع أعظم اثر عربي في وقته ، وهو يذكر ذلك صراحة في رسالة إلى ماري هسكل سنة 1914 ، فيقول :" في الأدب العربي أشياء كثيرة أعظم من آثاري ن لكن أقول بصراحة إن آثاري أكبر الآثار في اللغة العربية اليوم " [8] .يصدر هذا الموقف المبالغ في الاعتداد بالذات المبدعة ، وبعبقريتها ، وتفردها وتجاوزها ، عن رؤية مبالغة في رومنسيتها ، وهو ما جعل أدونيس يصف جبران قائلا : " كان يجمع في شخصه صوت الثائر وصوت النبي ، ولهذا كان حدسه الشعري حدس تغيير لا تصوير ن كان يرفض العالم حوله ، ويطمح إلى عالم آخر جديد , ومن هنا كان للشعر عنده فرادة ؛ كان تجاوزا وإضافة . فالخلاق بالنسبة إليه هو من يتفرد عن سواه بخصوية معينة ، ويضيف شيئا جديدا إلى خبرة الإنسان وتراثه " [9] .

وعند جبران كما يقول أدونيس : " اللغة الشعرية أكثر من وسيلة للنقل أو التفاهم ، إنها وسيلة استبطان واكتشاف ، ومن غاياتها الأولى أن تثير وتحرك ، وتهز الأعماق وتفتح أبواب الاستباق . إنها تهامسنا لكي نصير ، اكثر مما تهامسنا نتلقن . غنها تيار تحولات يغمرنا بإيحائه وإيقاعه وبعده . هذه اللغة فعل ، نواة حركة ، خزان طاقات ن والكلمة فيها أكثر من حروفها وموسيقاها . لها وراء حروفها ومقاطعها دم خاص ودورة حياتية خاصة . فهي كيان يكمن جوهره في دمه لا في جلده . وطبيعي أن تكون اللغة هنا إيحاء لا إيضاحا [10] "

يعد جبران بالنسبة لرواد مجلة شعر معلمهم الأول حين يعلن صراحة أن الشاعر أبو اللغة وأمها ، وأن المقلد ناسج كفنها ، وحافر قبرها ، ، ومن ثمة كان عمل هؤلاء الشعراء الرواد البحث عن لغة جديدة ، ذات طاقة إيحائية ، غير خاضعة لأي منطق دلالي ، غير روح التمرد التي نفخوها في اللغة بكل طاقاتها الإيحائية التي تبعث على الإدهاش ، وكانوا في ذلك غير متساوين لاختلاف رؤاهم ، ونزوعاتهم الشعرية ، وقد تميزت هذه الحركة الشعرية بموقفها المضاد للواقعية ، وكانوا يصدرون في ذلك عن منظور سوريالي رافض لكل القيم الفنية القديمة ، وفي بعض الأحيان لكل القيم ، ولذلك فهم يرون أن الشاعر لكي يعبر عن شعوره المفارق لما اعتاد عليه الناس من المشاعر والأحاسيس ، أن يمتلك طاقة لغوية إبداعية متفجرة ن تنم عن وعي متجاوز ومعاند ورافض ، يتبنى المجازات في القول ويتحاشى المعجم ن ويتجلى هذا النزوع بالذات في قصيدة النثر باعتبارها إبداعا لغويا جديدا قائما انتهاك الذاكرة الشعرية ، وتبني معجم ذي مقاصد جديد ة تجعل النص الشعري منفتحا على طاقات تعبيرية ممتدة ولا نهائية في نزوعاتها التجديدية ، وهو ما يجعل الكتابة الشعرية تحقق كينونتها من خلال التباين والاختلاق عن النموذج ن وتتحول إلى بحث ، ومجال احتمال ، ومساحة صراع ، تتجاوز باستمرار ما يرتبط بها من بني فنية وثقافية ، تنتج المعنى ومعنى المعنى على ما لا نهاية ، فاصبح بذلك تساؤل يراكم سرا على سر لتلج عالم الخفاء لا الجلاء [11] .

وبالنسبة لهؤلاء الشعراء فإن قيمة الشعر تسمو وترتفع كلما كان هذا الشعر مفارقا للواقع ولتفاصيله اليومية ، ولذلك فإن العلاقة بين اللغة الشعرية عندهم وبين الواقع تقوم على الإلغاء والتنافر ، يرى ادونيس " أن من خصائص الشعر الأولى أن يخرجنا مما نألفه ، وهو في هذا مثل الحب والحلم ، وكذلك فإن إبقاء الشعر سجين الحدود الضيقة للعالم اليومي سيؤدي به إلى الاختناق " [12] ، بالإضافة إلى أن التفاصيل تغيب روح الشعر ، وتتنافى مع حقيقته ، وتجافي عوالمه المجردة ، القائمة على التكثيف والإيحاء ، والاستشراف والتغيير .

واللغة الشعرية بطبيعتها مفارقة للغة العادية ، والشعر الجديد يرفض أن يكون أعادة صياغة لمعنى موجود في الواقع ، لأن الواقع الذي يشيده هذا الشعر لا يوجد خارجه ، ولا قبله ، ومن هذا المنظور يوصف بأنه خلق وابتداع لعوالم خاصة ، تقتضي ان يصدر هذا الشعر عن رؤية خاصة للعالم تؤسس لعلاقا ت خاصة بين لغته والأشياء ، كما تؤسس لتقنية فنية وجمالية مختلفة ، أو للغة شعرية خاصة ، وهو ما يجعلنا نقول مع أدونيس : إن الحداثة الحقيقية تعود إلى طريقة الكتابة باللغة ، لأن قصيدة النثر - مثلا – إن لم تكن طريقة جديدة في القول ، فإنها تصبح مجرد مصطلح ، والمسألة الأساسية هي كيف نجعل النثر شعرا [13] ، وبالتالي فإن ما تتميز به اللغة الشعرية هو قدرتها على التعبير عن عالم

تظل اللغة العادية عاجزة عن ملامسته أو احتوائه ، لأن هذا العالم اللانهائي الذي تشيده اللغة الشعرية قوامه الإنسان والحياة والثقافة ، وبذلك تصبح اللغة واصفة لهذا العالم ، وإنما هذا العالم في حد ذاته ، أي كينونته المتحركة والفعالة ، ويصبح بذلك الشكل التعبيري الذي تبدعه اللغة طاقة لتوليد العلاقات بين الكلمة والكلمة ، وبين الكلمة والشيء ن وبين الإنسان واللغة ، وأن خصوصية هذا الشكل نابعة من تجربة خاصة يعانيها الشاعر ، تشكل رحلة تلمس واستشراف ، واستقصاء ، وسير في اتجاه المجهول ، وهذا السير يظهر ذاتية الشاعر من خلال كتابته ، ولذلك فإن حضور هذا الشاعر في العالم الذي تشيده اللغة شرط أولي ، لكي يكون شعره حاضرا أيضا في العالم [14] .

وعلى العموم فإن المتفق عليه لدي حركة شعر ، أن اللغة الشعرية يجب أن تكون لغة تجربة ذاتية لكي تتسم بالتفجر والتوتر والتناقض والغموض ، فهي تتناول حالة معقدة أو غريبة من حالات النفس ، داخلة في عوالم الحلم واللاشعور والأعماق الدفينة التي تتغير بين لحظة وأخرى ، فهي بذلك تتميز بانها لغة الغرابة والسرية [15] ، فاللغة في علاقتها بالتجربة الشعرية ، هي منبع الجدة والاختلاف والحداثة ، وأن الشكل ليس منبع الجدة أو الحداثة في حد ذاته ، كونه قيمة من قيم الشعر ، والشعر الجديد بطبعه حركة دائبة ومطلقة لتتجاوز الزمن ، أو تعطيله ، ومن هذا المنظور ، فالحداثة الشعرية ترتبط بغنى التجربة الإبداعية ، وبمدى كشفها عن أعماق الأنسان ، واستشراف مستقبل الحياة والعالم .

هناك توجه لدى فئة من حركة شعر تعمل على انتهاك منطق اللغة ونحوها ، للاقتراب أكثر من النثر ، من حيث تبسيط الجملة والتراكيب والمفردات ، وهو ما نجده عند يوسف الخال في مجموعته " البئر المهجورة " ، ومن بين تجارب حركة شعر في انتهاك اللغة الشعرية في مستوياتها المختلفة سعيا لابتكار لغة جديدة وصور ودلالات جديدة ، ووصل الآمر إلى حد استثمار اللغة المحكية ، وقبول قائد باللغة المحكية في مجلة شعر ، مما أسهم في تداخل خصائص الأجناس وتقاطعها داخل النص الشعري ، رأى فيه بعض أعضاء الحركة فتحا للنصوص على الفوضى ، وكان ذلك نتيجة راعهم مع اللغة ، وفي هذا السياق يرمز جدار اللغة عندهم إلى الخروج من مرحلة القناعة بما هو قائم ، إلى مرحلة السؤال والقلق ، ومن مرحلة اللغة المحايدة إلى مرحلة الاصطدام باللغة ، وانتهاك مقدساتها ، ومن مظاهر هذا الانتهاك العدوان على الجملة الشعرية ، واستعمال جمل غير تامة ، كحذف العناصر المكونة لمنطق الجملة واكتماله ، وحذف الفعل الرئيسي ، واستبدال الجملة الفعلية بالجملة الإسمية لكي تقوم مقامها دلاليا ، وفي بعض الأحيان ترد جمل فعلية في اصلها وقد غاب عنها فعلها الرئيسي ، تظهر هذه الفوضى بخاصة في ديوان أنسي الحاج " لن " ، وذلك من خلال حذف كثير من حروف الربط بين الكلمات ،

وتعدية الفعل اللازم مباشرة على الضمير الذي كان مضافا إليه إلى مفعول به ، لأن الفعل أقوى من صيغة الإضافة [16] ؛ هذا الانتهاك عرف قديما بالضرورات الشعرية ، والغاية منه إقامة الوزن أو تقوية المعنى ، وكان علماء اللغة قديما يتتبعون سقطات الشعراء ، وكنت تقوم بينهم خصومات كبيرة تتعلق بالخصوص بنزعة التجديد والتحديث ، حيث كان الشعراء أن مهمة تجديد اللغة تقع على عاتقهم ، وليس على عاتق علماء اللغة ، وعرف هذا الانتهاك أو اللا نحوية ، الغرض منه خرق المعيار النحوي ، وانتهاك منطق اللغة ، وتوسيع طاقة الإيحاء والدلالة ، ذلك أنه عندما تهيمن الوظيفة الشعرية للغة تتراجع الوظيفة المرجعية والمعرفية حد الاختفاء .

- حدد مظاهر الانتهاك من خلال تحليلك للمقطع الشعري الآتي لأدونيس :

خارج الصدفة
أسافر
أصعد . أتفجر
ألبس الهدير والتهدج
أتموج بالرعب
أتحرر من التوبة ، العظة ، العودة
أتحرر من الصبر
من دمي والتاريخ الراقد فيه
أتجزأ وأعرى وأوسوس نفسي ضد نفسي
أضع نفسي خارج كل شيء وأقول للجنون الرشيق أن
يسرق أهدابي كنسيم غربي
أتقطع ، أنفصل ، أنفصم
أختبئ تحت شفتي [17]

- المراجع :

1- جورج مونان ن اللغة والتعبير ، ضمن " اللغة 5 " دفاتر فلسفية ن ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي ن دار توبقال للنشر ن الدار البيضاء ، ط 4 ، 2005 ، ص 7 .
2- حسين الواد ، اللغة الشعر في ديوان أبي تمام ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1997 ، ص 35 .
3- انظر : المرجع نفسه ، ص 30 .
4- سمير السالمي ن شعرية جبران ، المستمر بين الشعري والفني ن دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 2011 ، ص 83 – 84 ، رفع محمد بنيس هذا النص إلى مرتبة البيان الأدبي الملغى لمركزيته في تحديد تصور جبران وفهمه للغة ، راجع محمد بنيس ، الرومانسية ، ص 59 .
5- انظر المرجع نفسه ، ص 84 .
6- المرجع السابق ن ص 84 .
7- المرجع نفسه ، ص 86 .
8- أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، دار العودة ، بيروت ، ط 1 ، 1971 ، ص 80
9- المرجع نفسه ، ص 81 .
10- المرجع نفسه ، ص 79 .
11- نظر : أدونيس ، موسيقى الحوت الأزرق ، ص 26 .
12- المرجع نفسه ، ص 30 .
13- المرجع نفسه ، ص 137 .
14- أدونيس ، سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت ، ط 1 ، 1985 ، ص 110 .
15- المرجع نفسه ، ص 109 .
16- انظر ، خالدة سعيد ، حركية الإبداع ، دار العودة ، بيروت ، ط 1 ، 1979 ، ص 71 – 72 .
17- أدونيس ، الأعمال الكاملة ، ج 3 ، مفرد بصيغة الجمع ، وقصائد أخرى ، دار المدى ، دمشق / بيروت ، 1996 ، ص 92- 93 .